تاريخٌ يتكلَّم[١]

أيعرفُ القرَّاء : أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء ، محكَمةُ الوضع ، مُتسقةُ التَّركيب ، بديعةُ التَّأليف ، تجعلُ المرء حين ينام كأنَّه أسلم نفسَه إلى ـ شركةٍ من الملائكة ـ ، تَسبحُ به في عالَمٍ عجيبٍ كأنَّما سُحِرَ ، فتحوَّل إلى قصَّة ؟

إن يكنْ في القرَّاء مَنْ لا يعلمُ هذا ؛ فلْيعلَمْه منِّي ؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ ، وأقرأ في النَّوم ، وكثيراً ما يُلقى عَلَيَّ من بارع الكلام ، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُه لَعُدَّ من الخوارق ، والمعجزات .

وهذه القصَّةُ ؛ الَّتي أرويها اليومَ ، كانت المعجزةُ فيها : أنِّي مشيتُ في التَّاريخ ، كما أمشي في طريقٍ ممتدَّةٍ ؛ فتقدَّمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة ، وما يليها ، فعشتُ معهم ، وتَخَبَّرتُ من أخبارهم ، ثُمَّ رجعتُ إلى زمني لأقصَّ ما رأيتهُ على أهل سنة ١٣٥٣[٢] .

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلةٍ على النَّفس ، ما تَنطلقُ النَّفسُ لها ، أوَّلُها سوءُ الهضم ؛ ومتى كان البدءُ من هُنا لم تكن الحركةُ في النَّفس إلا دائرةً : تَذهب ما تذهبُ ، ثُمَّ لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينِهِ . فجلستُ في النَّديّ الذي أسْمُرُ فيه أحياناً ، فكان لجوِّه وزنٌ أحسَسْتُهُ ، كما يُحِسُّ الغائصُ في الماء ثِقَلَ الماء عليه ، ودخَّنتُ الكَرْكَرَة[٣] فلم تكن هواءً ، ودُخاناً يَترَوَّحُ بل كانت من ثقلها كالطَّعام يدخلُ على الطَّعام ؛ ونظرتُ ناحيةً ، فأخذتْ عيني رجُلاً فِيلِيَّ الخِلْقة ، مُنْطادَ البطن ، كأنَّما نُفِخَ بطنُه بالآلات ، يَحمِلُ منه مقدار أربعةٍ من بطون البَدينات

---

(١) يعني بهذه المقالة ، والتي بعدها (كفر الذبابة) تركية الحديثة ، وزعيمها المغفور له . وانظر : « عود على بدء » من كتاب « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) تاريخ إنشائه هذه المقالة . (س) .

(٣) « الكركرة » : اسم وضعناه للشيشة أو النارجيلة ، أخذاً من صوتها ، كما صنع العرب تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير ، وكما هي طريقتهم ، وتجمع الكركرة : كراكير ، بالياء للخفة . (ع) .

الحواملِ ، كل منهنَّ في الشَّهر التَّاسع من حَمْلها . . . وكان معي إلى كلِّ هذا البلاء خمسُ صُحُفٍ يوميَّة ، أريدُ قراءتَها . . . !

ثُمَّ جئتُ إلى الدَّار والمعركةُ حاميةٌ في أعصابي ؛ وما كان سوء الهضمِ مَنْوَمَةً ، فيدعوَ إلى النَّوم ، فدخلتُ بيتَ كُتُبي ، وأردتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تنالُه يدي ، فخرج لي كتابٌ في خُرافات الأوَّلين ، وأساطيرِهم ، وهَذَيَانهم وسوء هضمهم العقليِّ . . . كالكلام عن أدُونيس ، وأرطاميس ، وديُونيس ، وسميراميس ، وإيسيس ، وأتوبيس ، وأثرغتيس . . . فاستعذتُ بالله ، وقلت : حتَّى الكتُبُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالتْها الثِّقْلةُ ، والألم ؟

وبات اللَّيلُ يقظان معي ، وبقيتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلَّبُ حتَّى أخذ الصُّداعُ في رأسي ، فانقلب التَّعبُ نوماً ، وجاء من النَّوم تعبٌ آخر ، وقُذِفْتُ إلى عالم الأحلام في قُنبلةٍ تستقرُّ بي حيث تريد ، لا حيث أريد .

* * *

ورأيتُني في قومٍ لا أعرفُ منهم أحداً ، قد اجتمعوا جَماهير ، وسمعتُ قائلاً منهم يقول : « السَّاعةَ يمرُّ مولانا العالي » . فقلت لمن يليني : « مَن يكونُ مولانا العالي ؟ » قال : « أوَ أنتَ منهم ؟ » قلت : « ممَّن ؟ » فألهاه عن جوابي تَشَوُّفُ[1] النَّاس ، وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب ؟ فصاحوا : « القمر ! القمر[2] ! » ورَفَع الرَّجلُ الذي يُناكِبُني صوتَه يقول : « البركاتُ ، والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي ! » .

قلت : إنَّا لله ! لقد وقعتُ في قومٍ من الزَّنادقة ، يُعارِضون « التَّحيَّاتُ ، والصَّلَواتُ ، والطَّيباتُ لله » ؛ ثُمَّ مرَّ صاحبُ الحمار بحذائي ، وغمزه الرَّجلُ عَلَيَّ ، فقال : ما بالكُ لا تقول مثلَه ؟ قلت : أعوذُ باللهِ من كُفرٍ بعد إيمان ! فكأنَّما أراد أن يَلْطِمَني ، فرفع يده ، فصحْتُ فيه : كما أنتَ ـ ويلكَ ! ـ وإلا قبضتُ عليك ، وأسلمتك للبوليس ، وشكوْتُك إلى النِّيابة ، ورفعتُك إلى محكمة الجُنَح !

قال : ماذا أسمع ؟ الرَّجل مجنونٌ ، فخذوه ! وأحاط بي جماعةٌ منهم ، ولكنَّه

---

(١) « تشوف » : تطلُّع .
(٢) « القمر » : اسم ذلك الحمار ، وسيمرُّ ذكره في القصة . (ع) .

تَرَجَّل عن حماره ، وأخذ بيدي ، ومشينا ، فقلت : من أنت يا هذا ؟! قال : أراكَ من غير هذا البلد ؛ أمَا تَعرف الحاكم بأمر الله ؟ فأنا هو . قلت : انظُرْ ـ ويحكَ ! ـ ما تقول . فما أظنُّكَ إلا مَمْرُوراً ؛ لقد كتبتُ أمس كتاباً إلى مجلة (الرِّسالة) أرَّختُه ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة « الخروفين »[١] .

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥ ، فالرَّجل مجنون ، أوْ لا ، فأنت أيُّها الرَّجلُ من معجزاتي . لقد جئتُ بك من التَّاريخ ، فسترى ، وتكتب ، ثمَّ تعودُ إلى التَّاريخ ، فتكونُ من معجزاتي ، وتقصُّ عنِّي ، وتشهدُ لي . . . !

قلت : فإني أعرف أعمالَك إلى أن تُقتلَتَ في سنة ٤١١ . . . !

قال : أوَ إلهٌ أنت ، فتَخلُقَ ستَّ عشرةَ سنةً بحوادثها ؟ لقد كِدْتَ مِنْ أفنِكَ[٢] ، وغَباوتك تُفسِد عليَّ دعوى المعجزة !

وهاج الصُّداعُ في رأسي ، وبلغ سوء الهضم حدَّه ، واشتبك سيناتُ إيسيس ، وأتوبيس إلخ بسين إبليس ، ومرَّتْ بين كلِّ هذا حوادثُ الطَّاغية المعتوه المتجبِّر ، فرأيته يبتدع في كلِّ وقتٍ بِدَعاً ، ويخترع أحكاماً يُكْرِهُ النَّاسَ على أن يعملوا بها ، ويعاقبُهم على الخروج منها ، ثُمَّ يعودُ ، فينقضُ أمرَه ، ويعاقِبُ على الأخذ به ، كأنَّ الذي نَقضَ غيرُ الذي أبْرَم ، وكأنَّه حين يتبلَّد ، فيُعجزُه أن يخترعَ جديداً ـ يَجعَلُ اختراعَه إبطالَ اختراعِه .

ورأيته كأنَّما يعتدُّ نفْسَهُ مُخَّ هذه الأمَّة ، فلا بدَّ أن يكونَ عقلاً لعقولها ، ثمَّ لا بدَّ أن يَسْتَعْلِيَ النَّاس ، ويستبدَّ بهم استبدادَ الشَّريعةِ في أمرها ، ونَهْيها ، فكانت أعمالُه في جملتها هي نقضَ أعمالِ الشَّريعة الإسلاميَّة ، وظنَّ أنَّه مستطيعٌ محوَ ذلك العصرِ من أذهان النَّاس ، وقَتْلَ التَّاريخ الإسلاميِّ بتاريخِ قاتلٍ سفَّاك .

وسَوَّل له جنونُه : أنَّه خُلِقَ تكذيباً للنُّبوَّة ؛ ثُمَّ أفرَطَ عليه الجنونُ ، فحصَّل في نفسه : أنَّه خلق تكذيباً للألوهيَّة ؛ وفي تكذيبه للنُّبوَّة ، والألوهيَّة يحملُ الأمَّةَ بالقهر ، والغلَبة على ألا تصدِّقَ إلا به هو ؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صنَع ،

---

(١) مرت هذه المقالة في الجزء الأول . (ع) .

(٢) « أفنك » : أفِن الرَّجل ، أفَناً : ضعف عقله ، ورأيه .

فجاء تاريخه لا ينفي ألوهيةً ، ولا نبوَّةً ، بل ينفي العقلَ عن صاحبه ؛ وجاء هذا التَّاريخُ في الإسلام ليتكلَّم يوماً في تاريخ الإسلام .

* * *

رأيْتُني أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعمالَه ، وأُدوِّن تاريخَه ، وأَقبلتُ على ما أفْرَدَني به ، وقلتُ في نفسي : لقد وضعتني الدُّنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع إليه أحد من كتَّابها ، وأدبائها ، فسأكتبُ عن هذا الدَّهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدَّهرِ ٩٦٨ سنةً صاعدةً في العلم .

ودوَّنتُ عشرةَ مجلَّداتٍ ضخمةً ؛ انتبهتُ وأنا أحفظها كلَّها ، فإذا هي جُملٌ صغيرة ، جَعلَ الحلُم كلَّ نبذةٍ منها سِفراً ضخماً ، كما يُخيَّل للنَّائم : أنه عاش عمراً طويلاً ، وأحدثَ أحداثاً ممتدَّة ، على حين لا تكون الرُّؤيا إلا لحظةً .

وهذه هي المجلَّداتُ التي قلتُ : إنَّ التاريخ يتكلَّمُ بها في التَّاريخ .

المجلَّد الأول

ابتُليَ هذا الطَّاغية بنقيصتين : إحداهما من نفسه ، والأخرى من غيره ؛ فأمَّا التي من نفسه ؛ فإنِّي أراه قد خُلِقَ وفي مُخِّه لُفافةٌ عَصَبيَّة من يَهودية جَدِّه رأسِ هذه الدَّعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهدي عُبيد الله ، ويقولون : إنَّ عبيد الله هذا كان ابنَ امرأةٍ يهوديةٍ من حدَّاد يهوديٍّ ، فاتَّفق أن جرى ذكرُ النساء في مجلِس الحسين بن محمد القدَّاح ، فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنَّها آيةٌ في الحُسن ؛ وكان لها من الحدَّاد ولد ، فتزوَّجها الرَّجلُ ، وأدَّب ابنها ، وعلَّمه ، ثم عرَّفه أسرارَ الدَّعوة العَلَويَّة ، وعَهِدَ إليه بها .

ومن بعض اللُّفائف العصبيَّة في المخِّ ما ينحدرُ بالوراثة مطبوعاً على خيره ، أو شرّه ، لا يَدَ للمرء فيه ، ولا حيلة له في دفعه ، أو الانتفاء منه ، فيكونُ قَدَراً يَتسَلْسل في الخلْق ؛ ليحدِثَ غاياته المقدورة ، فمتى وقع في مخِّ إنسانٍ فالدُّنيا به كالحُبْلَى ولا بدَّ أن تتمخَّض عنه .

هذه اللُّفافةُ اليهودية في مخِّ هذا الطَّاغية ستُحقِّقُ به قولَ الله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ . . . ﴾ [المائدة : ٨٢] فهو لن يكونَ العدوَّ للإسلام دون أن يكون الأشدَّ في هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدَّ حتَّى يفعلَ بها الأفاعيلَ

المنكَرَة . وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ في الجوِّ إلا تخرقُ بمنظرها عينيه من بُغضِه للإسلام ، وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه ! .

وأما النَّقيصةُ الثانيةُ : فقد ابْتُلِيَ بقومٍ فتنوه بآرائهم ، ومذهبهم ، وهم حمزةُ بن علي ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . وقد لفَّقوا للدُّنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة ، لا يجيء إلا للهدم ، ثُمَّ لا يضعُ أولَ مَعاوِله إلا في قُبَّة السَّماء ليهدمها . . . ! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ في كلمةٍ واحدةٍ ؛ لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء ، تُريد إخراج الله من الوجود ؛ لإدخال الله في بعض الطُّغاة !

ويتلقَّبون في مذهبهم بهذه الألقاب : العقل ، الإرادة ، الإمام ، قائم الزَّمان ، علَّة العلل . . . !

المجلَّد الثاني

أظهرَ الطَّاغيةُ أنَّ الله يؤيِّدُ به الإسلام ؛ ليتألَّفَ الجندَ والشَّعبَ ، ويستميلَهم إليه ، وكان في ذلك لئيمَ الكَيْدِ ، دنيء الحيلة ، يهوديَّ المكْر ؛ فأمر بعمارة المدارس للفقه ، والتَّفسير ، والحديث ، والفُتْيا ، وبَذَلَ فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، وبالغَ في إكرامهم ، والتَّوْسِعَةِ عليهم ، والتَّخضُّعِ لهم ، ودَخَل في ظلال العمائم . . . وأحضَر لنفسه فقيهَين مالكيَّين (اثنين ؛ لا واحد) يُعلِّمانه ، ويُفقِّهانه ، وكان أشبَهَ بمُريدٍ مع شيخِ الطَّريقة يَتَسَعَّدُ به ، ويَتَيَمَّن أشرفَ ألقابِه : أنَّه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاتِه اليومُ الذي يقول له فيه الشيخ : رأيتُك في الرؤيا ، ورأيتُ لك . . . !

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميَّةُ الكريمةُ من هذا الطَّاغية ، هي بعينها رِبا اللُّفافةِ اليهوديَّة في مُخِّه ؛ تُصْلِحُ بإقراضِ مئةٍ ، وفيها نيَّةُ الخراب بالسِّتِّين في المئة . . . ! فإنَّه ما كاد يتمكَّن من النَّاس ، ويعرفُ إقبالَهم عليه ، وثِقَتَهم به ، حتَّى طَلبتِ اللفافةُ اليهوديةُ رأسَ المالِ والرِّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس ، وأبطل العيدَين ، وصلاةَ الجمعة ، وقَتَلَ الفقهاء ، وقَتَلَ معهم فقيهيه ، وأستاذَيه ، وعادَ كالمُريدِ المنافق مع شيخ الطَّريقة ، يقول في نفسه : إنَّ هناك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً في الصَّيد : الفخُّ ، والعمامة ، واللِّحية . . . !

إنَّ هذا الطَّاغيةَ مِلِكٌ حاكم ، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئاً واقعاً ، فيقتلَ علماءَ الدِّين بإهلاكهم ، ويقتلَ مَدارِسَ الدِّين بإخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنُقَ

من المسلمين كلَّ ذي عمامةٍ في عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ، ويرى هذا قوةً ، ولا يعلمَ : أنَّه لهوانِه على اللهِ قد جعلَه اللهُ كالذُّبابة التي تُصيبُ الناسَ بالمرض ، والبعوضةِ التي تقتل بالحمَّى ، والقملةِ الَّتي تَضْرِبُ بالطَّاعون ، فلو فَخَرَتْ ذبابةٌ ، أو تَبَجَّحَتْ قملةٌ ، أو استطالتْ بَعوضةٌ ؛ لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه في العالم . وهل فعلَ أكثرَ ممَّا تفعل ؟

لقد أوْدَى بأُناسٍ يقوم إيمانُهم على أنَّ الموتَ في سبيل الحق هو الذي يُخْلِدُهم في الحقِّ ، وأنَّ انتزاعَهم بالسَّيف من الحياة هو الذي يضعُهم في حقيقتها ، وأنَّ هذه الرُّوحَ الإسلاميَّة لا يَطْمِسُها الطُّغيانُ إلا ليجلوَها .

إنَّه والله ما قَتَلَ ، ولا شَنَقَ ، ولا عَذَّب ، ولكنَّ الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله ، وأعوزَه ذلك النَّوعُ السَّامي من الموت الأوَّلِ الذي كان حياةَ الفكرِ ، ومادَّة التَّاريخ ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها . . !

لقد أحياهم في التاريخ ، أمَّا هم ؛ فقتلَوه في التَّاريخ ، وجاءهم بالرَّحمةِ من جميع المسلمين ، أمَّا هم ؛ فجاؤوه باللَّعنةِ من المسلمين جميعاً !

المجلَّد الثالث

يرى هذا الطَّاغيةُ : أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ خُرافةٌ ، وشَعْوذةٌ عن النَّفس ، وأنَّ محوَ الأخلاقِ الإسلاميَّة العظيمةِ هو نفسُه إيجادُ أخلاق ، وأنَّ الإسلامَ كان جريئاً حين جاء ، فاحتلَّ هذه الدُّنيا ؛ فلا يطردُه من الدُّنيا إلا جَراءةُ شيطانٍ كالذي توَقَّحَ على الله حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] . ولهذا أمر النَّاسَ بسبِّ الصَّحابة ، وأن يُكْتَبَ ذلك على حِيطان المساجد ، والمقابر ، والشَّوارع !

أخزاه الله ! أهي روايةٌ تمثيليةٌ يُلْصِقُ الإعلانَ عنها في كلِّ مكانٍ ؟ لو سمع ؛ لسمع المساجدَ ، والمقابرَ ، والشَّوارعَ تقول : أخزاه الله . . . . !

المجلَّد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهبَ[1] يسمِّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسَه مُحْتَسِباً لغايةٍ خبيثة ؛ فهو يدورُ على حماره هذا في الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمَن وجده قد غشَّ ؛ أمرَ الأسودَ فـ . . . ! ووقف هو ينظر ويقول للنَّاس : انظروا . . . !

---

(١) « أشهب » : أبيض مختلط بالسواد .

ومن غَلَبَةِ الفُسوقِ على نفسه ، وعلى شيعتِه : أنَّ داعيتَه (حمزة بن علي) نوَّه بالحمار في كتابه ، وأومأ إليه بالثَّناء ، لخصالٍ : منها : أن . . . ! وكتبَ حمزةُ هذا في بعض رسائله : أنَّ ما يرتكبه أهلُ الفساد بجوار البساتين ؛ الَّتي يمرُّ بها (الفاسق) من المنكَر ، والفحشاء ؛ إنما يُرتكَب في طاعته . . . !

هذه طبيعة كلِّ حاكمٍ فاسقٍ مُلحدٍ ، يرى في نفسه رذائلَه عُريانةً ، فلا يكونُ كلامُه ، وعملُه ، وفكرُه إلا فُحشاً يَتعرَّى . وإنَّ في هذا الرَّجل غريزةَ فسقٍ بهيميَّةً متَّصلة بطَوْر الحيوان الإنسانيِّ الأوَّل ؛ فما من رَيْب : أنَّ في جسمه خلِيَّة عصبيَّةً مُهْتاجَةً ، ما زالت تَسْبَحُ بالوراثة في دماءِ الأحياء ، متلفِّفةً على خصائصها ، حتَّى استقرَّتْ في أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرتْ بكلِّ تلك الخصائص .

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مَرَدِّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدمَ الإسلام ؛ لأنَّه دينُ العفَّة ، ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمُها حجابَ عِفَّتها ، وإبائها ، ويمنعُها الابتذالَ ، والخلاعة ، ويُعينها أن تتخلَّصَ ممَّن يشتهيها ، ولو كان الحاكم . . . إنَّه يمقتُ هذا الدِّينَ القويَّ ، كما يمقتُ اللِّصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة ، ولكلِّ غريزة في الإنسان شعورٌ لا مَهْناً لها إلا أن يكونَ حرّاً حتَّى في التوهُّم ؛ وهل يُعجِبُ السكِّير شيءٌ ، أو يُرضيه أو يَلَذُّه ، كما يُعجبه أن يرى النَّاسَ كلَّهم سُكارى ، فَيَنْتشِي هو بالخمر ، وتسكَر غريزته برؤية السُّكر ؟

وما زال رأيُ الفُسَّاق في كلِّ زمنٍ : أن الحرِّيةَ هي حريةُ الاستمتاع ، وأنَّ تقييدَ اللَّذة إفسادٌ لِلَّذَّة .

المجلَّد الخامس

يزعم الطَّاغيةُ : أنَّه يُعِزُّ قومَه ، وما أراه يُعزِّهم ، لكنَّه يمتحنُ ذلَّهم ، وضعفَهم ، وهوانَهم على الأمم ؛ يتجرَّأُ شيئاً ، فشيئاً ، مُتَنَظِّراً ما يَتَسَهَّل ، مترقِّباً ما يمكن ؛ وهو يرى أنَّ أخلاقَنا الإسلاميَّةَ هي أمواتُنا ، دَفنوا أنفسَهم فينا ؛ فمن ذلك يَهدِمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسه أنَّه يهدمُ قبوراً ، لا أخلاقاً .

ولقد سَخِرَ منه المصريُّون بنكتةٍ من ظَرفهم البديع ، وجاؤوه من غريزته ، فصنعوا امرأةً من الورق الذي يُشبِه الجلد ، وألبسوها خُفَّها ، وإزارها ، حتَّى لا يشكَّ من رآها : أنَّها آدميَّةٌ ، ثم وضعوا في يدها قِصَّة ، وأقاموها في طريقه ؛

فلمَّا رآها عَدَلَ إليها وأخذَ من يدها القصَّةَ ، وقرأها ، فإذا فيها سَبٌّ له ، ولآبائه ، وسخريةٌ من جنونه ، ورُعونتِه[١] المضحِكة ، فغضب ، وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقَّق : أنَّها من الورق ، وأخذته النُّكتةُ الظَّريفةُ بمثل البرق ، والرعد ؛ فاستَشَاطَ[٢] ، وأمر عبيدَه من السُّودان بتحريق الدُّورِ ، ونهبِ ما فيها وسَبْيِ النِّساء والفُجورِ بهنَّ ؛ حتَّى جاء الأزواج يشترون زوجاتِهم من العبيد ، بعد أن طارت الزَّوبعة السَّوداء في بياض الأعراض .

اندلعتْ ثورةُ الفجور في المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيقِ المستقرِّ في هذا الطَّاغية .

المجلَّد السَّادس

وهذه رُعونَةٌ من أقبح رُعوناتِه ، كأنَّ هذا الحيوانَ لا يحسِبُ نساء الأمَّة كلّها إلا نساءَه ، فيأمرهنَّ بأمر امرأتِه ، وكأنَّ النِّساء في رأيه إن هُنَّ إلا استجاباتٌ عصبيَّةٌ ، تُطْلَق ، وتُرَدّ .

إنَّ لموجةِ الفسق في الغريزة الطَّاغيةِ جَزْراً ومدّاً يقعان في تاريخ الفُسَّاق . فهذا الطَّاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمْنَع النِّساءُ من الخروج ليلاً ، ونهاراً ، لا تطأ أرضَ المدينة قَدَمُ امرأةٍ ، وأمرَ الخفَّافين ألا يصنعوا لهنَّ الأخفافَ ، والأحذيَةَ ؛ ولما علم : أنَّ بعضَ النِّساء خرجْن إلى الحمَّامات ؛ هَدَم الحمامات عليهنَّ !

ولو مدَّت الموجةُ في تفسُّق الفاسق ؛ لفَرَضَ على النِّساء الخروجَ ، والاتِّصال بالرِّجال ، والتعرُّضَ للإباحة .

إنَّ الصَّلاحَ ، والفساد كلاهما فسادٌ ما لم يكن الصَّلاحُ نظافةً في الرُّوح ، وسموّاً في القلب .

المجلَّد السَّابع

يزعم الطَّاغيةُ : أنَّه سيَهدم كلَّ قديم ، وإنِّي لأخشى والله أن يأمرَ النَّاسَ في

---

(١) « رعونته » : الرعونة : الحمق .

(٢) « استشاط » : احتدم كأنه التهب من غضبه .

بعض سَطَوَاتِ جنونه : أنَّ كلَّ من كان له أبٌ ، أو أمٌّ بلغ السِّتين ؛ فليقتلْه ، لتخلُصَ الأمَّةُ من قديمها الإنسانيِّ . . . !

كأنَّه لا يعرفُ : أنَّه إنما يتسلَّط على أيَّام مُعاصرِيه لا على التَّاريخ ، ويحكمُ على طاعة قومه ، وعصيانهم ، لا على قلوبهم ، وطباعهم ، وميراثِهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلِكَ حتَّى ينبعثَ في الدُّنيا شيئان : نَتْنُ رِمَّتِه[1] في بطن الأرض ، ونتْنُ أعماله على ظهر الأرض . إنَّ هذا الرَّجلَ المُسَلَّطَ ، كالغبارِ المُسْتَطَار لا يُكْنَس إلا بعد أن يقَع .

ولقد رأى المأفونُ أنَّ أكلَ النَّاس الملوخيَّا الخضراء ، والفُقَّاع ، والتُّرمُس ، والجِرْجيرَ ، والزَّبيبَ ، والعنب ـ هوًى قديمٌ في طباع النَّاس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ، ولا يُؤكل ، وظهر على أنَّ جماعةً باعوا أشياء منها ، فضَربهم بالسِّياط ، وأمر فَطِيف بهم في الأسواق ، ثم ضَرب أعناقَهم ؛ كأنَّ الذي يحملُ الملوخيَّا الخضراء على رأسه ليبيعَها يلبس عمامةً خضراء .

أهذا ـ وَيْحَه ـ تجديدٌ في الأمَّة ، أم تجديدٌ في المعِدة . . . ؟!

المجلَّد الثَّامن

لا يرضَى الطَّاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيَّةَ الأمَّة كلِّها ، فلا يترك شيئاً رُوحانيّاً له في أعصاب النَّاس أثرٌ من الوقار ، وبمن يَسْتظِهرُ ـ ويْلَه ـ إذا مُحِقَتْ روحانيَّةُ الأمة وأشرفت نَزْعتُها الدِّينيَّةُ على الانحلال ؟ كأنَّه لا يعلم أنَّ حقيقةَ الوجود لأمَّةٍ من الأمم إنَّما تُسْتَمدُّ من إيمانها بالمثَل الأعلى ؛ الذي يدفعُها في سِلْمها إلى الحياة بقوَّةٍ ، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوَّةٍ ، وكأنَّه لا يعلم : أنَّ التاريخَ كلَّه تُقرِّره في الأرض بضعةُ مبادئَ دينيَّة .

هذا الحاكم الأخرقُ هو عندي كالَّذي يقول لنفسه : لم أستطعْ أن أفتح دولةً ، فلأفتح دولةً في مملكتي . . . لقد أمر بهدم الكنائس ، والبِيَع[2] ، حتَّى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ، ونيِّفاً .

---

(١) « رمته » : الرِّمَة : العظام البالية .

(٢) « البيع » : جمع بِيعة ، وهي كنيسة النصارى ، ومحل عبادتهم .

أيُّ مجنونٍ أسخف جنوناً من هذا الَّذي يحسب النُّفوسَ الإنسانيَّة كالأخشاب ؛ تَقْبَل كلُّها بغير استثناء أن تُدَقَّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشِبتْ حربٌ بينه وبين دولةٍ أخرى : أنَّه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاءً حين كسَرَ الدِّين !

المجلَّد التَّاسع

هذه هي الطامَّة الكُبرى ؛ فلا أدري كيف أكتُبُ عنها : لقد تطاوَل المجنونُ إلى الألوهيَّة ، فادَّعاها ، وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرَّحمن !

لو كان أغبى الأغبياء في موضعه ؛ لاتَّقى شيئاً ، لا أقولُ تقوى الدِّينِ والضَّمير ، ولكن تقوى النِّفاقِ السِّياسيِّ ؛ فكان يحملُ الناسَ على أن يقولوا عنه : « أبانا الذي في الأرَضِين . . . ! » .

وإلا فأيُّ جهلٍ ، وخَبْطٍ ، وأيُّ حُمقٍ ، وتهوُّر أنْ يكونَ إلهٌ على حمارٍ ، وإن كان اسمُ حماره القمر !

المجلَّد العاشر

سيأخذُه الله بامرأةٍ ؛ ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وَقاحةِ غريزته أن ائْتَفَكَ أخته[1] الأميرة (ستَّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة ، وهي من أزكى النِّساء ، وأفضلِهنَّ ، واتَّهمها بالأمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علمتُ : أنَّها تُدبِّر قتلَه ، وأنَّها اجتمعت لذلك بسيف الدِّين . فسأُمسِكُ عن الكتابة في هذا المجلَّد ، وأدع سائرَه بياضاً حتَّى أذهبَ إليهما ، فأعينَهما بما عندي من الرأي ، ثُمَّ أعود لتدوين ما يقع من بَعد . . .

* * *

ورأيتُ أنِّي اجتمعتُ بهما ، واطمأنَّا إليَّ ، فأخذنا نُدِيرُ الرأي :

قالت الأميرة لسيفِ الدِّين فيما قالته : « والرأي عندي أن تُتبِعَه غلماناً يقتلونه إذا خرج في غدٍ إلى جبل المقطم ، فإنَّه ينفرد بنفسه هناك ! » .

---

(١) « ائتفك أخته » : رماها بالإفك .

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأي ، ولا بالتدبير » .

قالت : « فما الرأيُ ، والتَّدبيرُ عندك ؟ » .

قلت : « إنَّ لنا علماً يسمُّونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحَّ عندي من هذا العلم : أنَّ الرجلَ طائشُ الغريزةِ مجنونُها ، وأنَّ الأشعةَ اللَّطيفةَ السَّاحرةَ ؛ الَّتي تنبعثُ من جسم المرأة هي التي تنفجرُ في مخِّه مرَّةً بعد مرَّةٍ ؛ فإذا خَبَتْ هذه الأشعة ، وبطَلت الغريزة ، بَطَلتْ دواعي أعمالهِ الخبيثةِ كلِّها ، وكَفَّ عن محاولته أن يجعلَ الأمَّةَ مملوءةً من غرائز جسمِه ، وشهواتِه ، لا من فضائلِها ، ودينِها . فلو أخذتم برأيي ، وأمضيتُموه ، فإنه سيُنكِرُ أعمالَه ؛ إذا عرضها على نفسِه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياتُه قد نطقتْ بكلمتها الصَّحيحة ، كما نطقتْ بكلمتها الفاسدة ؛ فإذا . . . » .

قال الأمير : « فإذا ماذا ؟ » .

قلت : « فإذا خُصِي . . . » .

فضحكتْ ستُّ الملك ضحكةً رنَّتْ رنيناً .

قلت : « نعم إذا خُصِي هذا الحاكم . . . » .

فغلبها الضَّحكُ أشدَّ من الأول ، ورمتني بمنديلٍ لطيفٍ كان في يدها أصَاب وجهي ، فانتبهتُ ، وأنا أقول :

« نعم إذا خُصِي هذا الحاكم . . . . . . » .

* * *